٤٣ ـ المصريون المحدثون

شمائلهم وعاداتهم

في النصف الأول من القرن التاسع عشر

تأليف المستشرق الإنجليزي اودرد وليم لين

للأستاذ عدلي طاهر نور

تابع الفصل الثالث عشر ـ الأصول

يشتهر المصريون بفضيلة الحب البنوي. وقد سبق أن ذكرت الاحترام الظاهر الذي يؤديه الولد إلى والديه. ويظهر المصريون أيضاً احتراماً زائداً للسنين[1] وبخاصة المشهورون بالتقى والعلم. ويعتبر حب المصريين لوطنهم وعلى الأخص مسكنهم صفة بارزة أخرى في طباعهم. ويخشى المصريون على العموم هجر مسقط رأسهم. وقد سمعت الكثيرين يقررون السفر إلى الخارج بغية كسب عظيم ولكن عزمهم يفتر عند ما يقترب موعد السفر. وقد خفف أخيراً من حدة هذا الشعور ما يعانيه البعض من شدة الظلم. ولا شك أن هذا الشعور نشأ إلى درجة عظيمة من جهل الناس لحالة البلاد الأجنبية وسكانها. وقد سمعت البعض يدلل على حب المصريين العجيب لمسقط رأسهم بأنه يندر أن ترضى امرأة أو فتاة، أو يسمح والدها، بالاقتران بمن لا يعد بالبقاء في مدينتها أو بلدتها. ولكني أظن أن الإحجام عن ترك الوطن في هذه الحالة ينتج من خوف المرأة أن تفتقر إلى حماية أهلها. ويتعلق البدو بصحراواتهم ويحتقرون الحضريين والفلاحين ولكن الكثيرين منهم يميلون إلى الاستقرار على شواطئ النيل الخصبة أيضاً. ومع أن المصريين من نسل البدو إلى حد كبير فهم لا يشابهونهم في حب الصحراء وإن شابهوهم في حب الوطن. وتزود الرحلة إلى الصحراء من يقوم بها من المصريين بقصص مطنبة في المتاعب والمجازفات والعجائب التي يعزفون رواياتها إلى مواطنيهم ذوي الخبرة القليلة

يعم الكسل جميع طبقات المصريين ما عدا الذين يضطرون إلى كسب حياتهم بالأشغال اليدوية الشاقة. وهذا الكسل نتيجة المناخ وخصوبة الأرض. ويبذل العامل بالآلات أيضاً بالرغم من شدة طمعه في الربح يومين في عمل يستطيع بسهولة إنجازه في يوم، ويهمل أكثر الأعمال ربحاً ليصرف وقته في التدخين. غير أن البواب والسائس الذي يجري أمام جواد سيده والنوتية الذين يستخدمون في جر المراكب صاعدين في النهر وقت سكون الجو واشتداد حرارته يقاسون، مثل الكثير من الفعلة الآخرين، تعباً شديداً.

يعرف المصريون أيضاً بصلابة الرأي إلى حد الإفراط. وقد ذكرت في فصل سابق أن المصريين اشتهروا منذ عصر الرومان، بامتناعهم عن دفع الضرائب حتى يضربوا ضرباً موجعاً، وبأنهم كثيراً ما يفتخرون بمقدار الجلدات التي نالوها قبل أن يتخلوا عن نقودهم. وهم لا يرون غرابة في مثل هذا التصرف. وقد حكي لي مرة أن فلاحاً فرض عليه الحاكم ما قيمته خمسة شلنات تقريباً ففضل أن يقاسي الجلد على أن يدفع هذا المبلغ الزهيد، وقرر أنه لا يملكه. فأمره الحاكم بالانصراف وقبل أن ينصرف لطمه على وجهه فسقطت من فمه قطعة ذهبية بقدر المبلغ المطلوب تماماً، فكأن الضرب مع قسوته عجز عن حمله على الدفع. وتبدو هذه الحال غريبة في طباع المصريين ولكن يسهل تبريرها بأن المصريين يعلمون تماماً أنه كلما دفعوا عن طيب خاطر طمع الحاكم في أموالهم. على أن المصريين بوجه آخر يمتازون بشدة العناد وصعوبة المقادة بالرغم من امتثالهم الشديد في طباعهم ومهنهم. ويندر أن يحمل المرء الصانع المصري على أن يصنع شيئاً حسب الطلب تماماً. فلا بد أن يفضل رأيه على رأي مستخدمه، ويصعب أبداً أن ينجز عمله في الميعاد المضروب. ولا يعوز فلاحي مصر، مع خضوعهم الشديد لحكامهم، الشجاعة عند ما ينهضون لخصومة بينهم. وهم يبرعون في الجندية

ولا شك أن المصريين مثل شعوب الأقاليم الحارة يفوقون الشعوب الشمالية في الاستسلام للشهوات. على أن هذا الإفراط لا ينسب إلى المناخ فقط، ولكن ينسب على الأخص إلى نظام تعدد الزوجات وسهولة الطلاق كلما اشتهى الرجل زوجة جديدة، وإلى عادة التسري. ويقال أيضاً كما أعتقد حقاً أن المصريين، فيما يختص ذلك، يسبقون الشعوب المجاورة التي

(١) أنظر لاويين ١٩ ـ ٣٢: «من أمام الأشيب تقوم وتحترم وجه الشيخ وتخشى إلهك أنا الرب»

تماثلهم فى الدين والنظم الدينية[1] ، وإن بلدهم لا يزال يستحق تسمية « دار الفاسقين » التى أطلقها القرآن على مصر القديمة طبقاً لرأى خير المفسرين . وقد أشاع المماليك الفاحشة فى مصر فأصبح الفسق هنا أكثر انتشاراً منه فى البلدان الشرقية ، ولكنه على حد القول قل كثيراً فى السنوات الأخيرة

يستبيح المصريون من الجنسين وفى كل طبقة ، البذاءة المفرطة فى الحديث ، حتى أعف النساء وأوقرهن عدا القليل منهن يستعملن الكلام الفليظ ، ولكن دون بذاءة . وكثيراً ما ينطق المثقفون عبارات فاحشة لا تلائم غير أحط المواخير . ويذكر أرق النساء فى حضرة الرجال أشياء وأحاديث قد تعف العاهرات فى بلادنا عن ذكرها دون أن يدركن مخالفة ذلك للآداب

توصف نساء مصر بأنهن ، فى أهوائهن ، أفسد النساء اللاتى ينتمين إلى أمة متحضرة . ويخلع مواطنيهن من الرجال هذه الصفة عليهن بسخاء حتى فى أحاديثهم مع الأجانب . ولا شك أن فى المصريات كثيرات يشذذن عن ذلك . ويسرنى أن أسوق هنا تعليقاً لصديق الشيخ محمد عياد الطنطاوى على عبارة فى ألف ليلة وليلة ، قال : « يعد الكثيرون الزواج مرة ثانية من الأعمال الشائنة ويسود هذا الرأى مدن الريف وقراه . ويمتاز أخوالى بهذا ، حتى أن المرأة عندهم إذا توفى زوجها أو طلقها فى شبابها تترمل ما بقيت فلا تتزوج مرة أخرى أبداً . ولكنى أخشى أنه ينبغى التسليم ، نظراً إلى غالبية المصريات ، بأنهن جدفاجرات . وقداشتطاً كثرهن كما يقال فى استعمال الحرية . ولا يعتبر أغلبهن مصونات إلا إذا أغلقت عليهن الدار . وقل منهن من يخضعن لهذا القصر . ومن المعتقد أن المصريات يملكن شيئاً من الدهاء فى تدبير الحيل التى يعجز الزوج عن تجنبها مهما كانت فطنته وحرصه ، وأنه قلما تخيب لذلك حيلهم مهما عظم الخطر الظاهر لما يباشرنه . وقد يكون الزوج نفسه أحياناً وسيلة لإشباع ميول زوجه الإجرامية بدون علمه . وتعرض لنا بعض قصص ألف ليلة وليلة فى مكائد النساء صوراً صادقة عن حوادث لا يندر وقوعها فى عاصمة مصر الحديثة . ويرى كثيرون فى القاهرة أن جميع النساء تقريباً على استعداد أن يدبرن الدسائس متى استطعن ذلك بدون خطر ، وأن الكثيرات يباشرن ذلك فعلاً . ويؤلمنى أن يكون الرأى السابق صحيحاً ، وأكاد أكون مقتنعاً أن الحكم الأخير شديد القسوة ، إذ يبدو من التقاليد السائدة المتعلقة بالمرأة أنه لا بد مكذوب . ويصعب على من لا يعرف العادات والطباع الشرقية معرفة كافية أن يدرك مشقة الاختلاط بالمرأة فى هذا البلد . فلا يصعب على المرأة من الطبقة الوسطى أو العليا إدخال عشيقها فى مسكنها فحسب ، بل يستحيل عليها تقريباً أن تلقى رجلاً ذا حريم على انفراد في منزله الخاص ، أو تدخل منزل رجل أعزب دون أن تثير ملاحظات الجيران وتدخلهم المباشر . وإذا لم يكن بُد من التسليم بإقدام الكثيرات من المصريات على المكائد مع وجود مثل هذه المخاطر ، فقد يكون صحيحاً أن الصعوبات التى تعترضهن هى العائق الرئيسى لكثير من المكائد . أما عند نساء الطبقة السفلى ، فالمكائد أكثر وقوعاً وأسهل إنجازاً .

(يتبع)

عبد الله طاهر لبيب

(١) وليس معنى ذلك أنه يقع على الأتراك أو عرب الصحراء

ستوديو مصر يقدم أبطال الكوميديا والرشاقة فى مصر
سليمان نجيب . أمينة شكيب . تحية كاريوكا . فؤاد شفيق
مع نخبة كبيرة من أشهر الممثلين والممثلات فى
أخيراً يتزوج
إخراج الأستاذ جمال مدكور
الأسبوع الرابع — ٤ حفلات يومياً
بسينما ستوديو مصر
س . ت ٢٩٧٣